دخل عليَّ الغرفةَ من النافذةِ الموصدةِ، في الطابقِ العشرينَ من الفُندقِ، وأنا بين النوم واليقظة، الحكيمُ أبو الفتح عمرُ بن ابراهيمَ المعروفُ بالخيّام، وتركَ على الطاولة نسخةً من رباعياتِه، وغادر الغرفةَ من النافذةِ صامتاً مثلما جاء

وأنا أتصفح الرباعيات

حسب الشيخ جعفر

- ١ -

خيّامُ ! إني قد أخذتُ النُصحَ عنكَ ولم أكن
من زُبدةِ الخُلاّنِ أو من صحبكَ المتخرجين
(وقعدتُ في ركنِ اعتزاليَ ناظراً
ألعابِ دهريَ نظرةَ المتفرجين)
أسفي عليَّ ! فما أصابت قاعداً غيري الكره
من أولين وآخرين !
خرجوا الى طُرقاتهم مستبشرين
ودلفتُ أعرجَ أشتري لخروجِ أعرجَ تذكره !

- ٢ -

(مذ أزهرَ القمرانِ وازدهت السما
خيّام ! لم يُخلَقْ ألذُّ من الطلا !)
وكما تقولُ (فهل رأى الخمارُ في أيدي الملا
شيئاً أعزَّ فباعَها وشرى فزيدَ به ثرا ؟)
لكنَّ سكّيراً رمته الخمرُ فافترشَ الثرى
بالأمسِ أوقفني وقالَ،
وقد جرى الدمعُ الهتون :
«ما زلتُ أشربها وتشربني الديون
حتى خرجتُ إلى الطريقِ كما ترى !»

- ٣ -

قلتَ : «ابتسمْ إن نلتَ من يدها المدام
وجرى كما يهوى الحشا ، يا صاحِ ، بينكما السرور !
إن كان عاقبةُ الوجودِ هي الستارةَ والختام
فافرضْ ختامك ، واسدلنَّ عليكَ من حَبب ستور !»
خيّامُ ! أرختْ قبلَ أن أخطو بمسرحِها الحجاب
أيدٍ وألوتْ بالممثلِ والشهود
فإن التقينا ، مرةً ، وقد انطوت هذي السدود
سيطولُ يا صاحِ العتاب !

- ٤ -

أنا يا حكيمُ أتيتُ بابَكَ حاملاً فلْساً صديء
متحيّراً في كُنهه ، متأملاً :
يعلو برنّته الذُرى القَزَمُ القميء
ويُطاحُ بالملكِ الهمامِ معفّراً ، متذللا !
هلا كشفتَ الستر عنه ؟
فلم نزل فيه حيارى !
فَلَكَمْ تناثرت المجرةُ وارتمت منها الشموس
ملءَ اتساع يديك تتّقدُ اصفرارا
تلهو بها ليلاً كما يلهو المقامرُ بالفلوس !

- ٥ -

خيّامُ ! لم نُفطَمْ، ولم تتُبِ اجتنابا
(كم توبةٍ منها يتوبُ التائبون !)
أوفى الربيعُ السَّمْحُ والطيرُ استجابا
غَرِدَ الهواتف في التفافِ الطلحِ أو بين الوكون
ومضى النهارُ، ونحن لم نبرحْ نلوبُ مطوّفين
صَفْرَ اليدينِ نَؤمُّها حاناً فحانا
في كل مُنْعَطَفٍ، نُلمُّ بدائنين
يلوونَ عنا الأوجهَ الصُفر السِمانا !

- ٦ -

قلتَ : «احفروا لي مَرْقداً ترمي الشمال
ورقَ الأقاحِ عليه ما افترَّ الأقاحُ غداً وفاح !»
«فلمن تُرى سيفوحُ ؟» قلتُ «ومن تُرى تُهدي الرياح
قَدّاحَهُ، وعلى الرَقودِ ثرىً وأحجارٌ ثقال ؟»
قلتَ : «اجعلوا غُسلي الكُميتَ فإن أتاني
أو مرَّ مخمورٌ على قبري انتشى وترحّما !»
قلتُ : «اسقنيها اليومَ
كالوردِ ازدهر وتبسّما
فغداً أمرُّ على ثراكَ ولن تراني !»

- ٧ -

خيّام ! أبقتْ لي ثمالتَها الغيوم
في القاع من خانٍ تلوذُ به «الصراصرُ» أو تطوف !
تأوي اليَّ من الأزقةِ كالضيوف
وتَلجُّ بالشكوى المَغيظةِ كالخصوم !
قلتُ : احسُها، فالقولُ ما قال الحكيم :
«العيشُ لا يصفو بلا راحٍ يُراحُ بها الندا مى»
فطفقتُ أحسو من ثقوبِ السقفِ ملءَ فمي الحميم
وألُمُّ من حولي «الصراصرَ» والهواما !

- ٨ -

خيّامُ ! دعْ ريمَ الخميلةِ وابنَ آوى
في الظلِ من طللٍ ثوى جمشيدُ فيه أو أقاما
ذي أرضعتْ خِشفاً وذا فرحاً ببُغيته تعاوى !
أنا في الطريقِ تزلّجتْ قدمي فألقت بي حطاما
أنا والزُجاجةَ،
فاحتوى المجرى الشوارعَ والتلالا !
يا شيخُ دعْ عنكَ التأسّي !
إني أحبُّ إليَّ من قصرٍ بصاحبه تعالى
هذي الشظّايا الغُبرُ تخبو حُمرةً وطلولَ كأسِ !

- ٩ -

خيّامُ قلتَ : «إذا التقيتم، مرةً، متواعدين
وتمايلت بالغادة النشوى الحميّا
ألا فاذكروا في شُربِها الشيخَ الثويّا
واسقوا الثرى من كأسه مترفقين !»
بل نحن ما اصفرّتْ وأرغتْ ملءَ أكؤسِنا الجِعه
متذكّرون، وإن تجهمَّ واكفهرا
ساقٍ حليقُ الرأسِ، واقتطع الممرا
علجٌ على المتهربين الحُمقِ فاشتبكوا معه !

- ١٠ -

«كم قد غدوتُ على المعلمِ،
وانكببتُ على المعاجمِ في الليالي
طفلاً، وكم علّمتُ بعدئذٍ صغاراً أو كبارا !
فاعلمْ ختامَ القولِ مني :
ما بلغتُ سوى مقالي
إني ابتدأتُ ثرىً وعدتُ هباً مُثارا !»
خيّامُ قلتَ، فما أقول أنا ؟ ولم أقرأ سوى
حرفٍ، ولم أُقرئْ سواي ؟
إني أمدُّ الطرفَ شيخاً أستشفُّ به الكُوى
فترُدُّني طفلاً كُواي !

بغداد